

المصدر: الأهرام

التاريخ: ٢٦ أكتوبر ٢٠٠٥

سوريا في قفص الاتهام الأمريكي
بقلم: د. سعيد اللاوندي



يبدو أن سوريا (الشقيقة) لن تغفلت هذه المرة من العقاب، فتقرير القاضي الألماني ميليس الذي تسلمه مجلس الأمن يوم الخميس الماضي جعل كل الاحتمالات مفتوحة بعد اتهامه سوريا (بعرقلة) التحقيق وضلوع كوادر سياسية وتنفيذية سورية في اغتيال رئيس الوزراء اللبناني الأسبق رفيق الحريري.

ومما يزيد الأمر صعوبة أن ثمة وفاقا غير مسبوق تم إبرامه بين الولايات المتحدة وأوروبا (والمجتمع الدولي) بشأن إرغام سوريا علي الإذعان والطاعة العمياء لما تقررته الأمم المتحدة، والمؤلم في الأمر أن فرنسا التي كانت قوة مساندة للنظام السوري طوال

الأحقاب الزمنية السابقة، قد قدمت سوريا قربانا لتحالف استراتيجي من نوع خاص مع أمريكا، وهو ما أضعف سوريا كثيرا، وجعلها قاب قوسين أو أدنى من قفص الاتهام، فبعد الاجتماع التشاوري الذي استمع فيه مجلس الأمن لشروحات ميليس سوف يجتمع المجلس ثانية علي مستوي وزاري بعد أيام لبحث التقرير وما يقدمه من طروحات بشأن العقاب الأمثل الذي يقع علي سوريا جراء ما اقترفت من آثام.

وليس بوسع أحد إنكار أن مشاهد مجلس الأمن (تشاورا واستماعا) التي تجري في هذه الأيام تذكرنا بمشاهد مماثلة قبل نحو عامين عندما كان الحديث متواترا في ذلك الوقت حول تقرير هانز بليكس، وتقرير كولين باول، ودفاع وزير خارجية فرنسا الذي كان مشبعا ببلاغيات لغوية غير مألوفة.

علي أية حال قد لا نستطيع أن نقول ما أشبه ليلة سوريا ببارحة العراق اللهم إلا في الشكل الإجرائي، وجملة الاتهامات التي تدين سوريا بالتقصير وعدم الاستجابة للإرادة الدولية، لكن هذا التماثل في المواقف لا ينطبق علي ردود فعل الدول الكبرى خصوصا فرنسا التي كانت تقف علي طرفي نقيض مع الولايات المتحدة إبان احتدام الأزمة العراقية (قبيل الاحتلال الأمريكي) بينما هي - في حالة سوريا اليوم - تقف جنبا إلي جنب مع الولايات المتحدة، بل وتدافع باستماتة - بلغت حد التهديد - عن الأجندة الأمريكية.

وبحسب لوموند ديبلوماتيك الفرنسية فإن تجريم سوريا دوليا بات أمرا وشيكا خصوصا بعد اتفاق الأجننتين الفرنسية والأمريكية، فبعد أن كان هناك خلاف بين الدولتين حول مستقبل سوريا، وهل سيتم تغيير النظام (بحسب المطلب الأمريكي) أم الاكتفاء بتغيير رأس النظام فقط (بحسب المطلب الفرنسي) فإن لغة التشدد القسوي هي القاسم المشترك حاليا ليس بين أمريكا وفرنسا، ولكن أيضا بين عدد من الدول الكبرى ذات التأثير داخل مجلس الأمن.

المؤلم أن سوريا - حسبما يبدو - قد استهانت بهذا التصعيد الذي واجهته منذ سنوات، وتحديدا منذ إصدار الكونجرس الأمريكي قراره الشهير بمحاسبة سوريا وتعاملت مع

الموقف وكأنه مجرد سحابة صيف, وربما لم يكن في خلدنا أن الأمر سيصبح علي الأقل بهذه الدرجة من المباشرة, والرسوخ, وليس خافيا أن اختفاء رفيق الحريري (رئيس الوزراء اللبناني الأسبق) بهذه الصورة التراجيدية المحزنة كان بمثابة الشعرة التي قصمت ظهر البعير السوري الذي وجد نفسه بين عشية وضحاها (وحيدا) يصارع أهوال) ما قدمت يداه.

والثابت أن فرنسا - في معرض تبرير انقلابها علي سوريا علي الأقل - كانت قد أرسلت أكثر من إشارة إلي النظام السوري كي يعيد حساباته منذ اللحظة التي قرر فيها مسألة المد المشنومة للرئيس اللبناني إميل لحود, لكن وبحسب مصادر فرنسية فإن رجال الحكم في سوريا لم يعيروا هذه الإشارات أدنى اهتمام, ناهيك عن شعور فرنسا بالخذلان من صديق فرانكفوني قديم (سوريا) عندما وافقت الحكومة السورية علي إبرام عقود نفطية مع شركات أمريكية وكندية وأهملت المطلب الفرنسي في هذا المجال.

علي أية حال فإن ما تعيشه سوريا اليوم هو - في جانب منه - نتيجة طبيعية لجملة من السياسات الأحادية التي اتخذتها القيادة السورية في الأعوام القليلة الماضية.

وغني عن البيان أن قائمة الاتهامات الموجهة لسوريا مثل مساندتها لحزب الله الذي تعتبره إسرائيل الحشرة السوداء في المشرق العربي, وعلاقتها الطيبة مع الدولة المارقة (إيران), وإيوائها لقادة الإرهاب الفلسطيني (علي حد الزعم الأمريكي), ثم عدم تعاونها في ضبط الحدود مع العراق ومنع تسلل المسلحين باتجاه بغداد والموصل وكركوك. كل هذه الاتهامات هي عوامل مساعدة (وليست أصيلة) لأن الاتهام الأساسي حسبما حدده تقرير ميليس هو التورط في اغتيال الحريري, وعدم التعاون مع التحقيق الدولي. يبقى أن نذكر أن سوريا باتت في خطر حقيقي ويترجم ذلك جملة التحركات الدبلوماسية التي تقوم بها خلال الأيام القليلة الماضية, لكن ظني أنها تحركات أشبه بمن يحرق في البحر.

فالنية الأمريكية (منعقدة) منذ فترة لإسقاط سوريا, والدليل علي ذلك أن التحرشات بها لم تتوقف لحظة واحدة, ناهيك عن أن قائمة الاتهام تطول وتتمدد عن حق وعن غير حق. المؤلم أن الساحة العربية منشغلة بما يحدث في فلسطين, وما يجري في العراق حول الوفاق الوطني والدستور ومحكمة صدام الوشيكة, وكان ما يحدث لسوريا اليوم أو غدا هو أمر مألوف, وهكذا تحول الجميع في المنطقة العربية إلي مجرد متفرجين علي مسرحية يعرف الكثيرون فصولها سلفا.

إن مأساة العراق لانزال نلغق أحزانها علي الجسد العربي منذ سقوط بغداد في 9 أبريل 2003, ولست أظن أن بالجسد العربي مكانا لضربة رمح جديدة بعد أن أصبح مثقنا بالجراح.

إنه اختبار عربي للبقية الباقية من تراثيات كانت تتحدث يوما عن (أمل وألم) عربي واحد, لكنه بلغة الوفاق الدولي الجديد - حسبما يبدو لي - أصبح كاللبن المسكوب لا يفيد الندم عليه.